كان العصر العباسي عصراً مهماً حقاً في تطور النثر فقد كان ثورة علمية لغوية تظافرت فيها جهود اهم كتاب العربية وعلماؤها الذين تثقفوا بأعلى مستويات البلاغة والفصاحة للغة العربية مستلهمين ذلك من الطاقة التعبيرية والدلالية العالية للنص القرآني وللحديث النبي وللمستوى الخطابي المتفرّد للجملة العربية في ذلك العصر وكيف لا وقد كانت بغداد آنذاك حاضرة الدنيا ومركز الثقافة والوعي في الشرق، كما يضاف الى ذلك ما حققه الاندماج العظيم للثقافات المتنوعة التي تضمنها المجتمع الاسلامي على امتداد المدن والأمصار التي خضعت للخلافة العباسية، كما يمكن ان نحدد سببان مهمان اسهما في ذلك التطور وهما:

1- **النقل والترجمة** التي ظهرت واضحة جلية في ترجمات ابن المقفع وغيره من العلماء واللغويين من غير العرب الذين خدموا العربية الى حد كبير

2ـ **تعرّب شعوب الشرق الأوسط** وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه من فنون المعرفة من جميع الثقافات والتقاليد والطرائق ، هذا بالإضافة إلى وجود الثقافات المتنوعة من يونانية وهندية وفارسية ، إلا أن الفارسية تغلب على ذلك .

الفنون النثرية في العصر العباسي:

أولاً: الخطابة :

من أبرز ما حدث فيها أنها وإن ازدهرت في بدايات العصر العباسي إلا أنها ركدت بعد ذلك . وأنواع الخطب الموجودة هي :

1ـ الخطبة السياسية : التي ازدهرت في أوائل هذا العصر وذلك لامتدادها من العصر الأموي ، ولأن الثورة العباسية اتخذتها أداته في بيان حق العباسيين في الحكم . ولكن سرعان ما ضعفت في دورها لاختفاء الأحزاب السياسية التي كانت موجودة في العصر الأموي . وقامت بعض الخطب فقط عند تولية أحد الحكام أو عند وفاته .

2ــ الخطبة الدينية : ظلت نشيطة نوعاً ما في المساجد . وتمثلت في خطب الجمعة والعيدين إلا أن هناك سنة جعلت الخطابة تضعف ، وذلك حين طلب الرشيد من الأصمعي أن يكتب له خطبة كي يلقيها ابنه الأمين ، وبذلك سن للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، مما جعلها تضعف على السنة الخلفاء ، ولكن هذا بالمقابل جعلها تزدهر على ألسنة الزهاد والفقهاء والمحدثين المتكلمين بها في مساجد بغداد والبصرة .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة استشهاداً على ما يذكرون . وكثيراً ما كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الديني وتفسير بعض آي الذكر الحكيم . وكان البعض يستقدمهم الخلفاء ليعظوهم حتى يبكوهم ، ومن هؤلاء : عمرو بن عبيد واعظ المنصور ، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي ، وابن السَّمَاك واعظ الرشيد الذي دخل عليه يوماً فقال له الرشيد : عظني . فقال : " يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غداً بين يدي ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما : جنة أو نار " فبكى هارون حتى خضلت لحيته

3ــ الخطابة الحفلية : التي ضعفت في هذا العصر على عكس ما كنا نعهده في العصر الإسلامي والأموي ، (**عللي**) والسبب طبيعي هو أن وفود العرب لم تعد تفد على قصور الخلفاء وبالتالي لم يعد خطبائها يفدون عليهم ، فقد أُسدلت الحجب بين الخليفة والرعية واتصلت الخطابة الحفلية عند تولية حاكم أو وفاته ، وقد يجمع بين التهنئة والتعزية في خطبة واحدة .

ثانياً : الكتابة :

ورث العصر العباسي الكتابة وقد تطورت تطوراً ظاهراً في العصر الأموي . ومن العوامل التي بوأت لها المنزلة الرفيعة إضافة إلى خمود جذوة الخطابة التي كانت تزاحمها في الميدان :

1ــ الثقافة : حيث نشطت في هذا العصر الحركة اللغوية والعلمية والشرعية والاجتماعية والكونية ، إضافة إلى حركة الترجمة التي أمدتها بحكمة الهند وآداب الفرس

وفلسفة اليونان ، فزخرت العقلية العربية بكل هذه المعارف ، وأخذت تمد أقلام الكُتّاب وتقوّم أساليب المُتَرَسّلين ، وخير مثل على ذلك الجاحظ الذي يغرف من كل بحر ويكتب في غرض ويُجَلِّي في كل ميدان .

2ـ الحضارة : حيث استقبل العرب في هذا العصر حضارة جديدة هي مزيج من حضارة الإسلام وحضارتي الفرس والروم التي نقلتهم من البوادي القفار إلى القصور والبساتين والأمن والاستقرار ، وغيره من مظاهر الترف التي انعكست على ذهن الكتاب وعلى الأساليب والألفاظ التي لانت بلين الحياة ورقّت برقة الطباع .

3ـ وجود ديوان الرسائل : الذي ارتفع شأنه في هذا العصر لكثرة أعبائه وعظم ورسالته ، وأصبح رئيسه وزيراً أو بمنزلة الوزير ، وكان مستشار الخليفة مستودع أسراره لذا كان يُختار من أهل الثقة أو من ذوي القربى . إلا أن الأعباء حين كثرت لم يعد يشترط أن يكون من ذوي القربى ، ومع ذلك فقد كان الخلفاء يتولون بأنفسهم الرد على الرسائل العامة التي يرونها على جانب من الأهمية . فهذا الرشيد حين غضب لتهديد نقفور إمبراطور الروم في رسالة بعثها إليه أبى إلا أن يرد بنفسه قائلا : " من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، فهمتُ كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ". إلا أن الديوان الذي أصبح اسمه في هذا العصر ديوانَ الإنشاء أصبح قبلة لأنظار العرب والموالي للمكانة التي يتبوؤها من يعمل فيه .

4ـ كثرة الدواعي والأغراض : تشعبت فنون الكتابة تبعاً لتشعب أمور الحياة في هذا المجتمع الحضري الجديد ، فاقتحمت على الشعر ميدانه وشاركته في أغراضه وفنونه

والكتابة فرعان : إنشائية ، ووصفية . **والإنشائية فرعان** : الرسائل ، والقصص ولمقامات .

1ــ الرسائل :

يراد بالرسالة أصلاً : ما ينشئه الكاتب إلى غيره في غرض من الأغراض . فتشمل الخطاب كما تشمل الجواب . ومنها التوقيع ، وتشمل أيضاً المقالات الإنشائية (كوصف الصديق) لابن المقفع ، كما تشمل المناظرات الأدبية كمناظرات البديع والخوارزمي ، فإن صدرت عن الديوان ووردت إليه متعلقة بشؤون الدولة كانت (رسمية) ، وإن لا فهي الرسائل الشخصية الخاصة .

وقد سبق أن ذكرنا أن من يعمل في هذا الديوان لا بد أن تتوفر فيه شروط خلقية وفنية ؛ لأن الدقة في اختياره واجبه لكون أمور الدولة ستكون أمانة في يده . ومن تلك الشروط : أن يكون حليماً ، مقداماً محجاماً ، كتوماً للأسرار وفياً ، عالماً بكل فن من فنون العلم ، وقبل ذلك متفقها بالدين بدءاً بكتاب الله والفرائض ، ثم العربية ، ثم إجادة الخط ورواية الأشعار ومعرفة غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، والبعد عن المطامع والكبر والسرف والترف .

ويمثل هذه الصفات تحلى كُتّاب الموالي ، ولعل **البرامكة** كانوا أول وأشهر من جمع هذه الخصال وتحلى بهذه الآداب ، وهم فوق موهبتهم الأدبية احتضنوا الأدباء كُتّاباً وشعراء لمآرب سياسية . إلا أن هذه السجية (الكرم) سواء أكانت فطرية أم لأهداف قومية كانت حافزاً لأرباب البيان على الإجادة والافتنان . حتى أشرق الديوان بغرر الرسائل ، وعلا كعبُهُ ببلاغة الأعلام من أمثال **عمرو بن مسعدة وسهل بن هارون**

اقتضت سياسة الدولة نتيجة لاتساع الملك أن يُنشأ للرسائل ديوان خاص ، ومنه تنفذ الرسائل معبرة عن رغبة السلطان ومن بيده الأمر إلى الشعب والولاة في الأقاليم أو القواد في الميادين ، وكانت مقيدة بالغرض والتقاليد الرسمية .

وقد كانت هذه الرسائل في أول أمرها خالية إلى حد كبير من التهويل والمبالغات والخيال الخصب ، إلا أنها بعد ذلك تغيرت وسارت مجالاً فسيحاً لأفانين البلاغة ، فأطنبوا حيث يجب التفصيل ، وأوجزوا إذا اقتضى المقام ذلك وربما بلغوا بالإيجاز حد التوقيع .

التوقيعات :

أي التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها ، مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة ، أو قول محكم من إنشاء الكاتب ، بأسلوب موجز دقيق ربما بلغ بالإيجاز حد الإعجاز .

وممن بلغ الغاية في ذلك جعفر البرمكي الذي كان كاتباً بليغاً ، إذا وقَّع نُسِخت توقيعاته . ومن ذلك توقيعه لعامل كثر التظلم منه : " كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت " .

وقد اختُلف في أصل هذه التوقيعات أهي عربية صميمة أم منقولة عن الفارسية ، غير أن توقيعات الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية تجعلنا نقول بعربيتها الأصيلة

الرسائل الخاصة :

هي تلك الرسائل الشخصية التي تُحبَّر بعيدة عن الديوان إلى أحد الإخوان في أمور خاصة لا تتعلق بشؤون الملك ولا بسياسة الدولة ، أو تتعلق بها بصفة غير رسمية لتعزية والشكوى والعتاب والاستعطاف ، وغير ذلك مما يصور العواطف الخاصة بقدر ما بين الأفراد من روابط وصلات

ومن ثم كانت أدخل في الناحية الفنية من الرسائل العامة الرسمية ، فهي أفسح منها مجالاً ، وأخصب خيالاً ، لا يحدها إلا ذوق الأديب

أغراضها جمة ، وأساليبها متنوعة ، وكاتبها حر طليق . إن أرادها جادة كانت عين الجد ، وإن أرادها مرحة كانت ذوب الفكاهة ، وإن شاء كانت أقسى من الصخر وأصلب من الحديد . فما أشبهها بالشعر إلا أنه موزون مقفى .

2ـ القصص والمقامات

أسفرت حركة الترجمة التي ازدهرت في هذا العصر عن نقل طائفة من عيون القصص الفارسية والهندية إلى العربية ، ومن هذه القصص الفارسية (ألف ليلة وليلة) و (رزبة اليتيم) (دارا والصنم الذهب) (نمرود) (الديك والثعلب) ، (مزدك) . ومن الهندية (السندباد الكبير والصغير) و(كليلة ودمنة). إلا أن أغلبها ضاع أو أُحرق ولم يبق لنا منها سوى اسمها ، وقد أشار إليها ابن النديم في (الفهرست) ، ولعل أروع ما وصلنا منها وذاع وانتشر هو :

كليلة ودمنة :

وهو كتاب أدب وحكمة ، يحوي طائفة من القصص الهندية الهادفة ، وضعه على ألسنة الحيوانات (بيدبا) الفيلسوف البرهمي للملك (دبشليم) الطاغية ، وهو يرجو من ذلك أن يصرف همه عما هو عليه ويرده إلى العدل والإنصاف . فكان الكتاب في ظاهره للتسلية، وفي باطنه الحكمة والآداب التي تعظ الملوك من طرف خفي

ومن ثم نقله من الفارسية إلى العربية ابن المقفع في عهد أبي جعفر المنصور ، ونقل من الأصل العربي إلى معظم لغات العالم . وقد كان موقف ابن المقفع من الخليفة كموقف الفيلسوف البرهمي ، فقد كان يرجو أن يقرأه الخليفة فيعدل ، وتقرأه العامة فتغضب لظلمها .

ألف ليلة وليلة :

اشهر واهم الكتب القصصية التي عرفت الغرب بحضارة الشرق العظيمة على مستوى السرديات، وقد نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، **وهو مجموعة ضخمة**

من القصص الشائقة بعضها فارسي الأصل وبعضها دخيل من وضع العرب . أما الأصيل فمعزو إلى فارسية قاصّة تدعى (شهرزاد) كانت قد تزوجت من ملك ساساني طاغية يقتل كل زوجة يقترن بها صباح اليوم التالي بعد أن خانته زوجته الأولى يدعى (شهريار) . فلما خشيت شهرزاد على نفسها أخذت تقص عليه كل ليلة طرفاً من قصة مسلية ليدركها الصباح قبل تمامها ، فيبقي عليها لتكملها في الليلة التالية . ولما كانت الليلة الأولى بعد الألف استشفعت إليه بأبنائها الثلاثة أن يبقيها على عصمته ، وكشفت له عن حيلتها فأكبر عقلها وأبقى عليها

أما الدخيل فقد جاء متمثلاً في حلقتين : **الأولى بغدادية** تدور حول الرشيد والبرامكة ، **والثانية مصرية** تدور حول القاهرة ولياليها وسمرها وما طُبع عليه أهلها من روح الدعابة وعذوبة الحديث ، وتُرجِمَ هذا الكتاب إلى معظم لغات العالم

القصص العربية :

أقبل العرب على هذا التراث وبخاصة ألف ليلة وليلة التي فتحت لهم آفاقاً جديدة خصبة الخيال ، فأخذوا ينسجون على منوالها حتى تمكنت لهم الملكة الفنية ،

- غير أنهم كانوا يمزجونها أحياناً بالنكت والنوادر كما في قصص جحا .
- وقد وجد العرب في تراثهم الجاهلي والإسلامي ما أمدهم بقصص الحماسة والبطولة والغرام ، وإن كانت ليست قصصاً بالمعنى الفني ، وإنما كانت بالسِّير أشبه . من ذلك قصة عنترة وقصة بكر وتغلب ، وقصة البُراق ، وشيبان وكسرى أنوشروان
- وثمة ألوان أخرى من القصص التي عالجها العرب تهدف إلى أغراض أخرى علمية فلسفية ، كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري
- أو تهدف إلى أغراض أدبية ولغوية كمقامات بديع الزمان الهمذاني